«أخوان رامون» الشاعر الأندلسي الزاهد والتأثير المزدوج

بقلم : أبو القاسم درارجة
- جامعة الجزائر

بعد أن كتب ثلاث مقالات عن الشاعر «غارثية لوركا»[1] ، وتأثره بالثقافة العربية الإسلامية ، دفعني فضولي الى تصفح كتاب «منتخبات شعرية للشاعر «أخوان رامون خيينث» الذي يعد من بين أكبر الشعراء الغنائيين في القرن العشرين باسبانيا . وقبل أن أقدم نماذج من شعره أود أن أعطي لمحة وجيزة عن حياته .

ولد الشاعر في 24 من شهر ديسمبر 1881م ببلدية المغير «ALMOGUIR» التابعة لولاية «ولبَا» بمقاطعة الأندلس (حسب التعريف الجغرافي الحالي) ومات في 28 من شهر ماي من عام 1951 م بـ (سان خوان - بورتوريكو (SAN JUAN Puertorico) بأمريكا اللاتينية ، وبذلك يكون قد عاش 78 سنة وبضعة أشهر ، وهو عمر طويل نسبيا ، قضاه الشاعر بين لهو وجد ، وبين شدة ورخاء ، واضطهاد فكري .. رغم كل هذا فإنه دخل ساحة الأدب في سن مبكرة وخاض غمار الشعر وهو لا يزال يافعاً ، وبما أن الحقبة الأولى من عمره كان يغلب عليها الطابع الديني المتزمت فإن الشاب انغمس فيه ودافع عنه ، ولذا تعتبره الكنيسة من الطاهرين القانتين الذين سخروا أشعارهم لأغراض دينية محضة وانتهى به المطاف ليصبح زاهدا ويتخلى عن كل نوع من الشعر الذي يخرج عن هذا المنوال . ولقد أصبح غير رحيم ولا هادىء سواء مع نفسه أو مع غيره ، وحبه للشعر جعله صلبا لا ينثنى عما يريد قوله من الشعر الزهدي . تزوج «أخوان» في 28 أكتوبر 1916م (وهو زواج متأخر جداً عصرئذ) بامرأة نادرة تدعى (زَنُوبْيَا) كانت شعلة في الذكاء وموقرة ومحترمة أيضا من طرف الجميع ، وهو زواج موفق اذا نحن نظرنا الى

العصر الذي عاش فيه وسلطنا الأضواء على الطبقات الإجتماعية في عصرهما - وهذه النظرة التاريخية تحدد لنا الإطار الذي نحن بصدد دراسته فالمجتمع الاسباني ورث الكثير عن المجتمع الإسلامي الأندلسي وتأثر به في كل شيء ، وتأثر بالمجتمع الإيطالي أيضاً لأنه يستمد مقوماته العقائدية والوجدانية من كنيسة القديس «بُطرس» لقد كان المجتمع الاسباني قبل عصر الشاعر وأثنائه وبعده ينقسم الى ثلاث طبقات باختصار - السادة الاقطاعيين والنبلاء المثقفين والفرسان (زِنَاتِيJinete) فكان لزاما على شاعرنا أن يختار من طبقته ... نعود الى زوجته التي قاسمته شطراً من حياته وساعدته وشجعته على انجاز أعمال جليلة في ميدان الشعر ، ماتت زنوبيا في 28 من شعر أكتوبر من عام 1958م بعد ثلاثة أيام من نيله شهادة النبوغ الولبي (نسبة الى مدينة ويلبا «Huelva» وهي تعادل جائزة نوبل في الأدب ، ولسوء الحظ فإن الشاعر لم يعمر طويلا ولم يتذوق طعم جهده ، حيث توفى بعد وفاة زوجته بنصف سنة فقط . وبالنسبة للأندلسيين والاسبان خاصة والمحبين للثقافة والفن عامة فإن «أخوان رامون» الشاعر الزاهد توفى جسدياً ولم يتوف ثقافياً» فهو مثل الصائغ الذي صنع سبائك من الذهب والفضة ، وهو صنع السبائك من كليات بقيت كاتبقى سبائك الذهب الخالص المطبوع ، وأن شعره ونثره أكثر صفاء واشعاعا في الأدب الاسباني الحديث ، وهذا يعود لسلاسته وسهولة ألفاظه ، مما يدل على عدم تكلفه ، كما كان نموذجاً أزليا ، خالداً في رقة الشعور ، ورغم ذلك فإن الشاعر لم يكن راضيا تمام الرضى عن أعماله الكثيرة ، ولم يكن يعتبرها نهاية الارب ، ولا كاملة المقاصد ، فالذي كان يعتبره نهاية المقاصد وأوج السعادة في حياته هي زوجته «زنوبيا» التي لم تخنه قط ، ولذلك كان يمثل قمة الكآبة وذروة الحزن . لقد كان من المستدينين قلما تجد مثله في عصره ، ولقد أثبت ذلك في أشعاره الرقيقة والعميقة في الوقت نفسه التي تفوح برائحة (الأرض الأم) لـ (تاغوري رابيند رانث «Rabindranth» والذي لا يستبعد أن تكون زنوبيا قد ترجمته له الى الاسبانية وشد هو أوتاره وأحكمها .

إن كانت هذه نبذة عن حياة «أخوان رامون» الأندلسي الزاهد المسيحي ، فما العلاقة التي تربطني أنا به ؟ ، ان الروابط التي تربطني به عديدة ، أهمها الثقافة بصفة عامة ، فهي تراث مشترك ، تشترك فيه جميع الإنسانية ، وأن «خوان رامون» ولد في أرض تغذت وتشبعت بأعمال أجدادي الذين تركوا بصماتهم واضحة في كل شيء ، وأخيراً إن شعره الزهدي ذكرني بشعر أحد قمم الشعر ونهاية التصوف والزهد ولد بنفس المقاطعة التي ولد بها «أخوان رامون» ولذا بدا لى أن هناك صلة بين هذين الشاعرين اللذين عبرا عن أفكارهما في فترتين زمنيتين متباعدتين

ومتقاربتين في نسج قصائدهما ، على الرغم من اختلافهما في التفكير والدوافع النفسية والعقائدية المتباينة ، وادراكهما للواقع بطريقتين مختلفتين ، ولا شك أن التباين في تفكيرهما كبير والفرق في قصائدهما بارز ، غير أن ما في تقاربهما وتباعدهما يشكلان في - نظري - معالم واضحة في تطور الثقافة وفي تأثير السابق بالاحق فما هي الفوارق الموجودة بينهما يا ترى ، بالاضافة الى ما قلناه سابقا ؟ الفوارق الموجودة بينهما ، هو أن المتصوف الأول ولد سنة 610هـ/ 1212م و«أخوان رامون» ولد سنة 1881م كما مر معنا . والفارق الثاني هو أن الأول يقرأ ويكتب بلغة عربية ، والثاني بلغة مشتقة من اللاتين ومتأثرة بالعربية ، والفارق الثالث هو أن الأول يتغنى باسم الجلالة والرسول الكريم ، والثاني بالتثليث - الله ، المسيح عليه السلام ، ومريم العذراء - . والفارق الرابع هو أن الأول يتغنى بأشعار وأزجال ويتبعها بتحريك أوتار عوده ، والثاني لا أستطيع أن أثبت إن كان يحسن العزف أم لا ، وآخرا أن الأول يغني في كل بلد حل به بلهجة أهل ذلك البلد ، وأن الثاني لا نعلم عنه شيئاً في هذا الميدان . إن كانت هذه هي الفوارق الموجودة بينهما فما هو التقارب الموجود بينهما في كل ذلك ؟

أولها أنهما عاشا في لفترة متشابهة ، فترة إنحطاط تقريبا في كل شيء ، فالأول عاش في فترة اضطراب سياسي واقتصادي وثقافي أصابت الأندلس فعاش شريداً ومات مرابطاً في أقصى الشرق ، والثاني عاش في فترة مماثلة بعد فقد كل المستعمرات الاسبانية بأمريكا وما تابعها من اضطراب سياسي واقتصادي . اذا فهما فترتان متشابهتان في الإنحطاط !! وتقاربهاأيضاً في الألفاظ السهلة التي يفهمها جميع الناس ، والثاني في حبه وخدمة العقيدة ، والتشابه في مفاتيح الموشحات وأقفالها ، رغم أن شعر «أخوان رامون» وغيره من اللاتينيين لا يسمى بالموشح ولا بالزجل - لكن الاسبان يعرفون هذا النوع من الشعر ويتذوقونه ، الى اليوم ، لأنه نشأ وازدهر في أرضهم .

لهذه الأسباب كلها ارتأيت الكتابة عن «أخوان رامون» الشاعر الأندلسي الزاهد القانت ، وذلك لأنني عندما وضعت منتخباته الشعرية أمامي ورحت أتصفح أوراقها وأتبين عباراتها تذكرت الصوفي علي بن عبد الله الششتري[2] الوشي النمري الأندلسي الذي خصصت له دراسة مستفيضة ، وتتبعت خطواته منذ نشأته الى أن وضعوه في لحده وترجمت نصيباً من موشحاته وأزجاله الى اللغة الاسبانية في أطروحتي التي قدمتها بكلية الفلسفة والأدب بجامعة غرناطة سنة 1976م تحت عنوان «الرحالة الأندلسيون الى المشرق الإسلامي عبر المغرب الأوسط من القرن 12 الى 13م ونلت بها شهادة الدور الثالث . ولقد بهرني شعره سواء منه العمودي على طريقة

القدماء ، أم الموشحات والأزجال وركزت في دراستي له على اللهجة التي وظفتها في أشعاره وأزجاله بحيث حفظ لنا اللهجات المستعملة عصرئذ في الأقطار الإسلامية ، وإن كان أغلب إنتاجه متأثرا باللهجة الأندلسية ، وللتدليل على ما أقوله ، أو على الأقل ما أتصوره أنا ، ومافهمته من شعر الشاعرين يجب علي أن أقدم نماذج من شعرهما والذي شجعني أكثر على كتابة هذا المقال ، هو أن «أخوان رامون» لربما ولد بنفس الولاية التي ولد بها الششتري ، وأنا أعلم ما مدى تعلق الاسبان وحماسهم في البحث عن تراثهم دون تحيز عرقي ، حيث كل مقاطعة تريد أن تبرز أعمال أعلامها لتنافس غيرها ، فقربطة على سبيل المثال بها شارع الزهراء وشاعر الحكم[3] ومدرسة ابن حزم[4] ، وتمثال له وآخر لابن رشيق[5] وضريح لابن زيدون وولادة ولقد رسمهُمَا في الآونة الأخيرة وضعوا على الضريحين لوحة رخامية كتبت عليها أبيات من الشعر باللغة العربية ومترجمة الى اللغة القشتالية تخليدا لمآثرهما [6] ، وببلنسية أطلق على أحد شوارها اسم ابن الأبار القضاعي [7] ، وغرناطة ، أطلق على أحد أحيائها اسم الزايدين[8] ، وحي آخر الخليفة[9] ، وشارع باسم أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة ، وشارعان باسم بني الأحمر بناة الحمرا ، وشارع باسم السيدة مَرْيَم ، ومدرسة باسم يوسف الأول[10] ، وشارع آخر باسم السيدة عائشة [11] ، وبقرية الحامة شارع باسم مينة[12] – آمنة بنت ألونْصودِي جَاوَةْ ، والملقب بمحمد الأموي الذي قام بثورة عارمة في جبال البشارات «ALPUJARRAD»[13] ، وبمدينة المنكب «AL MUNICAR» أقيم في هذه السنوات الأخيرة تمثال لعبد الرحمان الداخل ، لهذه الأسباب أظن أن «أخوان رامون» قرأ إنتاج بعض الأندلسيين وخاصة انتاج الششتري ، سواء بلغته الأصلية أم مترجماً كما ذكرنا أيضاً وهو احتمال وارد لأن العربية ليست غريبة في الديار الأندلسية الى يومنا هذا – ولربما أنها غريبة عندنا – إذاً سأقدم هذه النماذج الشعرية محاولاً قدر استطاعتي أن تكون ترجمتي هذه أمينة تؤدي المعنى المطلوب ، متجنباً كل تغيير أو إضافة أو حذف ، حتى تكون نسخة طبق الأصل لما قاله الشاعر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تسهل على القارىء الكريم مقارنتها بأزجال الششتري وموشحاته .

عنوان القصيدة «حدائق الزهاد» قالها الشاعر بين سنة (1903م و 1904م[14] .

أنت ستنظرين إلي باكية ،
سيكون فصل الورود
أنت ستنظرين إلي باكية ،
وأنا أقول لك لا تبكين ،

وأن قلبـي سينـــــــــــــــــام
تـــــدريجيـــــــا ... يـــــــداك
تـــــــداعبـــــــان الجبيـــن
عـرق يتصبـب مـــن أخيـــــــــك
أنـا الـذي سـأكـون على علم بـأحـزانـك فقـط
أنـت تنظريـن إلـي نظـرة المعـــانـــــاة !
أنـت يـــا أختـــاه جـــد لطيفـــة
وأنـت ستقـوليـن لـي مـــا بـــك ؟
وأنـــــا ســـــأنظـر إلـى الأرض
وأنـت ستقـوليـن لـي مـــا بـــك
وأنـــــا ســـــأنظـر إلـى السمـــاء
... وأبـتـســم
وأنـــت ستكـــونيـــن مستلقيـــــة
وأنـــــــــــــا أبتـســم
لأقـــــــول لـــــــك لا شـيء .

في هذه القصيدة الزهدية التي يصف فيها الشاعر مدى حبه وتأثره بمريم العذراء وهي تتألم لما ترتكبه أمتها من ذنوب ، والتي يقابل فيها الشاعر البكاء بالابتسامة ، والحزن والكآبة بالورود والأقاحي ، والسماء بالأرض ، كما أننا نرى البيت الأول يتكرر وهو ما يشبه الموشح الأندلسي . كما نجده يعبر عن أفكاره من منطلق فلسفي بحيث أنه يرى الأحزان زائلة لا تدوم مثلها مثل الأفراح ، فهما متغيران مثل الكون ، ففي البيت الأول نجد كلمة باكية ، والثاني فصل الورود ، ومعنى ذلك أنه لا يجعل هذه الأحزان أبدية متصلا بعضها ببعض بل تتخللها ابتسامات وأفراح .

وفي قصيدة أخرى عنوانها «صباح الصليب» نظمها الشاعر سنة 1907م[15] يقول :

اللّـه ! ، أنّهـا زَرْقَـاءُ ، النّـاي والطّمْبُـور ،
يُعْلِنَـانِ قـدومَ صَلِيـبَ فَصـل الرّبيـع
تحيـــا الـــورود ورود الحُـــبّ ،
بيـن أشعـــة الشّمـس ، وخضـرة المُـرُوج

هَلُـمَّ إلـى الحقـل مـن أجـل الأقـاحـي
هـلـم ، هـلـم
لـلأقـاحـي وللحـبّ ..
سـألتهـا ، «أتتركينـي أُحِبُّـكِ ؟،
أجـابتنـي فـي حَمَـاسٍ مُتَّقِـدَة ،
«عنـدمـا يـزدهـر صليـب الرّبيـع ،
أنـا أُحِبُّـكِ بكـل قلبـي»
هلـم إلـى الحقـل مـن أجـل الأقـاحـي
هـلـم ، هـلـم ،
لـلأقـاحـي وللحُـبّ ...
«لقـد ازدهـر صليـب الرّبيـع
الحـبّ ، الصليـب ، الحُـيّ لقـد ازدَهَـر
أجـابتنـي ، «أنـت تريـد أن تُحِبَّنِـي ؟،
وضـوء الصَّبـاح يَخْتَرِقُنِـي !،
هلـم إلـى الحقـل مـن أجـل الحـبّ ،
هـلـم ، هـلـمّ
النَّـاي والطَّمْبُـور يُبْعِثَـان فـي عالمنـا السُّـرُورَ ،
وهنـا الفراشـة بكـل أَبَّهَتِهَـا ،
خَطِيبَتِـي هـي عَـذْرَاء الْعُهُـود الْمَـاضِيَـة ،
هـا هـي ذي سَتُحِبُّنِـي مـن كـلّ قلبهـا

فالشاعر «خوان رامون» يستعمل في هذه القصيدة كما في غيرها ، ألفاظاً سلسة وعذبة في الوقت نفسه ، غير متكلف ولا مبتذل يبدو أحياناً متشائماً ولكنه لا يقطع الأمل ، كما أنه يختلف عن الكثير من الشعراء الزهاد المسيحيين وذلك لأنه يوهم القارىء بأنه يتغزل بعشيقه ما سلبته لبّه ولكن في الواقع يتغزل بأم المسيح - عليه السلام - مَرْيَمَ الْبَتُول التي تشكل قاعدة التثليث الذي يؤمن به شاعرنا كسائر المسيحيين المخلصين لعقيدتهم .

الواقع أن هذا النّمط من الشعر الزّهدي الغنائي قد انتشر في الأندلس على يد الشعراء الصوفيين المسلمين قبل مجيء «أخوان رامون» بقرون ، وهذا لم أستبعد أن يكون هذا الأخير قد

قرأ بعض القصائد من شعر ابن بلدته (الشُّشْتَرِي) سواء مترجمة كما ذكرت آنفا ، أو وقع هذا التأثير عن طريق الرواية الشفوية التي يتلقاها جيل بعد جيل ، وهذا النّمط لا زال معمولاً به في الأندلس إلى اليوم ، ولربّما تعدّى حدودها وعبر القارات حيث زرعت بذرة فأعطت ثمارها .. رغم جحود الجاحدين وحقد الحاقدين فستظل بارزة التأثير واضحةً الْبَصَمَات .

بعد هذا العرض الذي قدمناه عن «أخوان رامون» نريد أن نقدم للقارىء الكريم بطاقة - لا أريد أن أقول كاملة - للشاعر الزاهد ، والمتصوف الثّائر ، والزّجّال العَازِف على عُوده ، عَليّ الشُّشْتَري الْمُكَنَّى بأبي الْحَسَنْ النَّمْري الأندلسي ، تذكر بعض المصادر التي اهتمت بدراسته[16] وبدراسة الجالية الأندلسية المقيمة عصرئذ ببجاية ، فتلقبه بما يلي ؛ الشيخ الفقيه الصالح العابد ، الأديب المستجرد أبو الحسن علي النَّمْري الشُّشْتَري[17] ، ولم تتعرض الى والده ، في حين البعض من هذه المصادر تقول ، بأنه ابن عبد الله ومهما يكن فالاختلاف بين هذين المصدرين لا يشكّل عائقاً ، بل يزيد وضوحاً ، واذا نحن جمعنا شتات هذه المعلومات حَوْلَ شاعرنا ، فإننا نفضّل ترتيبها على هذا النّسق علي بن عبد الله النمري الشُّشْتَرِي الوشي الْمُكَنَّى بأبي الحسن اذاً فهو من بني نُمَيْر التي هي بطن من بطون هَوَازِنْ استوطنت في بادىء الأمر وادي آشْ ، وَشُشْتَرُ هي قرية صغيرة من أعمال «قادِسْ» أما اللّوشِي فهي قرية بالأندلس ، تقع في أحواز غرناطة وهي مسقط رأس لسان الدّين بن الخطيب صاحب الإحَاطَةِ في أخبار غَرْنَاطَة ، ولقد اتّفق جميع مترجموا حياته على هذه النسبة ، ويضيف الأستاذ الْمَقَرّي في نَفْحِهِ بأن زُقاق الشَّشْتَرِي معروف في بلدة شَشْتَر المذكورّ آنفاً[18] . والشَّشْتَرِي نفسهُ يُشِيرُ في أزْجَالِهِ إلى هذا حيث يقول :

عارض لزجّال عاشق شعره كما ترى
غالي في حِيّ أسْرَارِه لُو شِي وَشُشْتَرِي

لكن الشيء الذي يبقى يشكل عائقاً في طريق الباحث الذي يريد الالمام بكل ما له صلة بحياة الشَّشْتَرِي هو عدم تعرض مترجمي حياته إلى أبويه ما عدا فقرة واحدة لإبن ليون[19] (750هـ / 1342م) أوردها لنا الأستاذ سامي النَّشَّار تقول ، بأن الشَّشْتَرِي ولد حوالي سنة 610هـ 1212م ، وهذه معلومة هامة ، رغم عدم تعرضه إلى مكان الولادة ، ويضيف نفس المصدر بأن الشَّشْتَرِي كان من الأمراء وأولاد الأمراء فصار من الْفُقَرَاء وأولاد الفقراء[20] ، وإذا تمعنا في شطر البيت الأخير من البيتين السابقين ، فإننا نؤكّدْ ولو بصورة غير قطعية بأنه ولد لُوشَهْ وأصل عائلته من شُشْتَرْ وحسب أغلب المصادر والمراجع التي هي في متناولنا ، فإن

الششترى لم ينشأ في أسرة ذات إرثٍ عِلْمِي وثَقافي ، بل في أسرة غنية ، لعل بعض أفرادها كانوا ولاة لبعض المقاطعات غير أن هذه المصادر لا توصح لنا شيئاً على الاطلاق ، ثم أن شعره خال من أي اشارة الى أبويه . ورغم شخصية الششترى والتأثير الذي تركه في كل أرض حل بها ، ورغم كثرة تلامذته وأساتذته وأصدقائه والمحبين لأشعاره ، وأزجاله ، وحتى أعدائه فإن هذه النقطة الأخيرة بقيت غير واضحة ، ولا أدري لماذا تغافل مترجموا حياته عن تسجيل تاريخ ولادته ووفاته وتتبع خطواته ما عدا الذي أشرنا إليه سابقاً .

مهما يكن فإن غرضنا ها هنا هو مقارنة شاعرنا بالشاعر الأندلسي المسيحي «أخوان رامون» وما دام هدفنا هو هذا فنكتفي بهذه البطاقة التي قدمناها للشَّشْتَرِي - بالنِّسبة لِنَسْبته وتاريخ ومكان ولادته - أما ما نراه مؤثراً من إنتاجه الفِكري وأشعارهُ «أخوان رامُون» فهي كالآتي :

قل للذي ملكني ملكه ... وغبّط الجسم بالسّقام
لولا اسْتوى قرْبي فِيكَ وبُعْدِي ... قدْ كان مِتُّ فيك مِنَ الْغَرَامِ
يا من سرى سِرٌّ في طِبَاعي ... أنت القريب مني البعيد
من أعجب الأشياء وأنت معي ... وعشقي فيك كل يوم يزيد
وأنا بتهتك وانطباعي ... غرامي فيك دائم جديد[21]

إن نوع هذه الأبيات زَجَل ، ولهجتها قريبة إلى الْفصْحَى ، وهو يتغزل فيها بشيخه عَبْدَ الْحَقِّ ابْن سَبْعِين عندما ذهب هذا الأخير إلى مكة وبقي الششتري ببلاد المَغْرب . ولو نحن أخذنا هذه القصيدة دون معرفتنا لصاحبها لقلنا أنها قصيدة غزلية يشكو فيها من هجر حبيبه .

وفي قصيدة أخرى وهي من نوع الزّجل وَأَسَاسُهَا ، فَعُولُنْ فَعُولُنْ وهي تتسم بلهجة أندلسية مغربية ، يتغزل فيها الشاعر بشيخه السالف الذكر يقول :

لذا الحُبّ عِنْدِي ... مَقَامُ عَظِمْ
وأَنَّهُ كُلُّوا ... لِمَنْ لَوْ صَبَرْ
فمن بَلي منكم ... بِهَذَا ٱلْهَوَى
يصبْر ولا يجعل ... لِدَاؤُهُ دَوَا
وصَالُوا وَهِجْرُوا ... هُ عِنْدِي سَوَا
ان كان حبيبك ... بِقَلْبِكَ مكْقِمُ
فَلاَشْ تَشْكُوا هَجْرُو ... مَتَى مَا هَجَرْ

لَمْ قَطْ هَجَرْنِي حَبِيبِي أَنَا
ولا جَارْ عَلِيَّا ولا قَدْ جَنَى
يَعْمَلُ إِشْ مَا يَعْمَلْ هُ عِنْدِي ٱلْمُنَى
وصَالُوا وَهِجْرُوا جَعَلْتُوا نَعِيمْ
وأنتَ يَا عَاقِلْ أَنْظُرْ ذَا النَّظَرْ
لأي تُبْصِرْ مُفَرِّقْ والتَّفْرِيقُ مُحَالْ
وَتَجْعَلْ لحبك هِجَارْ ووصَالْ
هَا هُوَّ الاّ واحِدْ وَبِغَيْرِ انْفِصَالْ[22]

وفي قصيدة أخرى طويلة جداً ، وهي من الزّجل ، الأساسْ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ ، بلهجة سخرية يقول :

اسْمَعْ كَلاَماً مْلْتَقِطْ افْهَمْنِي قَطْ افْهَنِي قَطْ
إِشْ قَالِي وَاحِدْ عَلَّهْ
ذا ٱلْمعْنَى افْهَمْ شَرْحَهْ
إِشْ اسْمْ حِبَّكْ قُلْتُ هُو
اسْمُ ٱلْمَلِيحَ مَا يَخْتَلِطْ افْهَمْنِي قَطْ افْهَمْنِي قَطْ
مَحْبُوبِي قَدْ عَمَّ الْوُجُودْ
وَقَدْ ظَهَرْ فِي بَيْضِ وَسُودْ
وَفِي نَصَارِي مَعْ يَهُودْ
وَفِي الحُرُوفِ وَفِي النِّقَاطْ افْهَمْنِي قَطْ افْهَمْنِي قَطْ[23]

فبعد هذا العرض لنموذجين من شعر الشاعرين ، نستطيع أن نصل إلى نتيجة هي تأثير الشَّشْتَري في «أخْوَانْ رَامُون» فالأول يمدح الله ويتقرب له أحياناً مباشرةً ، مثل هذا النموذج الأخير الذي أراد من خلاله أن يفهمه القارىء والسامع على حد سواء ، بأنه ليس ضد العقيدة الإسلامية فهو يحاول أن يقرب الأديان الثلاثة إلى بعضها البعض ، دون أن يقلل من شأن الإسلام بل يجعله خاتمة الأديان . وفي القصيدتين السابقتين ، نراه يتقرب إلى أستاذه ابن سَبْعِين وَيَجْعَلَهُ الْمُرْشِد والهادي الى الطريق الأفضل ، وهو الذي ألهمه إلى التقوى ، في هذا المدح والإطراء والتعظيم لأستاذه ابن سَبْعِين يكاد أن يوهم القارىء بأنه يتغزل بمعشوقة ما ، سلبته لبّه وجعلته يكفر بكل شيء ما عدا هي وظِلَّهَا وَسِحْرَهَا وَقُدْرَتُهَا على امْتِلاَكِ عُقُولِ ٱلْبَشَرِ .

واذا تأملنا المقطوعات الشعرية لـ «أخوان رامون» فإننا نجده يتغزل بالعذراء دون الإشارة الى اسمها الحقيقي وبواسطتها يتقرب إلى المَسِحِ عَلَيْهِ السَّلاَم ، الذي هو قاعدة التَّثْليث ، وبهذا الأسلوب يكاد أن يوهم القارىء بأنه يتكلم عن معشوقة ملكت عقله وأبت أن تَرُومَهُ ، فهو يستعطفها ويتوسل اليها . وهذه العلاقة الموجودة بين شعر الشاعرين .

وهناك علاقة أخرى سبق وأن أشرت إليها ، وهي التشابه في المفاتيح والأغصان والأقفال المستعملة في قضائِدهما. وتبقى ملاحظة أخرى تستحق الإشارة ، هي أن الشُّشْتَري عَميق الفلسفة مُلماً بالأديان الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية ، وبعبارة أخرى فهو فقيه متبحّر في الفقهه وأصوله ومحدث لا يستهان به ، وشاعرٌ مُمْتَاز ، وزجّال ماهر ، وفيلسوف متضلّع عَلِمَ بالفلسفة اليونانية والرومانية والإسلامية على اختلاف مدارسها وعازف على العود ، وآخرا وليس بالأخير يحسن الكثير من اللهجات والعادات المنتشرة في الوطن الإسلامي .

وأما «أخوان رامون» - بالمقارنة إلى الشُّشْتَري - فثقافته محدودة لا تتعدى اللاتينية والإسلامية الحديثة ، هذا من حيث اللغة ومن حيث الثقافة فهي أيضا محدودةٍ ، مسيحية كاثولوكية ايبيرية[24] .

ورغم أن الفارق الزمني بينهما بعيد ، والعقيدتين متباعدتان في الفلسفة أيضاً ، فإنني ارتأيت أن أقارن بينهما لأظهر ما مدى التأثير العربي الإسلامي في شعب شبه جزيرة إيبيريا راجياً أن يكون بحثي هذا نافعاً لطلابنا والله ولي التوفيق .

الهوامش

☆ ديوان (Juan RÀMON) طبعة مدريد 1969 .

(1) نشرت عدة مقالات عن الشاعر «غارثية لوركا» بجريدة السلام عدد .

(2) المغيرة قرية بولاية وادي الحجارة ، مشتقة من المغيرة القائد الأموي .

(3) حول الششتري أنظر ، بلقاسم درارجة «الرحالة الأندلسيون إلى المشرق الإسلامي عبر المغرب الأوسط» (بالاسبانية - 1976م ، لم يطبع بعد ص ونفس المؤلف Interaccion Cultural: Emigracion de Magribies a al andalusy ANDALUSIES a al Magrib al Awsat (GRENADA 1989),II , P,825-840.

(4) شارع الحكم وشارع الزهراء من أكبر شوارع قرطبة الحالية .

(5) شارع وتمثال ابن حزم صاحب (طوق الحمامة) بقرطبة الحالية .

(6) تمثال ابن رشد ، الحفيد بجانب أو مقابل لتمثال ابن حزم قرب الجامع الأعظم بقرطبة الحالية .

(7) في مدخل شارع مدينة الزهراء بقرطبة تجد ضريحي ابن زيدون وولادة .

(8) شارع ابن الأبار القضاعي البلنسي صاحب التكملة لكتاب الصلة ، والحلة السيراء ومعجم الصفدي يوجد بوسط مدينة بلنسية الحالية .

(9) حي الزايد بن على ضفة نهر شنيل بغرناطة الحالية . (مشاهدة عيان) .

(10) حي الخليفة حي جديد أطلق عليه شباب غرناطة هذا الاسم تعظيما الأجداد هم الخلفاء المسلمين .

(11) مدرسة يوسف الأول تلاحق القيصرية المحاذية لساحة باب الرملة بغرطانة ، وكل هذه الأماكن تحتفظ بهذه الأسماء لفظا وكتابة .

(12) شارع عائشة يقع في قلب حي البيازين قريباً من الباب الجديد بغرناطة .

(13) أنظر مقالنا : «الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش» في أعمال المؤتمر الخامس للدراسات الموريسكنية الأندلسية ، ج II ، صف 76 – 82 زغوان ، تونس 1993 .

(14) نفس المصدر صفحة 79 .

(15)أنظر ديوان «أخوان رامون» ص 52 – 53 .

(16) نفس المرجع ، ص 69 .

(17) أنظر القاضي الغبريني ، عنوان الدراية ، طبعة الجزائر ، ص 210 – 213 .

(18) أحمد المقرى ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطب ، ج 2 ، ص 384 .

(19) أنظر مقال للأستاذ النشار في مجلة المعهد المصري بمدريد ، عدد 1 ، (1953) ص 122 .

(20) نفس المرجع ، ص 122 – 155 .

(21) أنظر ديوان الششتري طبعة ، ص .

وبلقاسم درارجة «الرحالة الأندلسيون» ص 240 – 241 .

(22) نفس المرجع ، ص 242 – والنشار ، (أبو الحسن الششتري ص 141 .

(23) ديوان الششتري ، ص 177 – 180 .

(24) عبارة «ابيرية» تعني شبه جزيرة ابيريا (اسبانيا والبرتغال) .